مقياس السيميولوجيا العامة

ماستر1 سمعي بصري

الأستاذ زياد اسماعيل

المحاضرة الخامسة

: سيميولوجيا الدلالة:

يعتبر" رولان بارث " خير من يمثّل سيميولوجيا الدّلالة، لأن البحث السيميولوجى لديه هو دراسة الأنظمة والأنساق الدالّة فجميع الوقائع والأشكال الرمزية والأنظمة اللغوية تدلّ، فهناك من يدل باللغة والآخر من يدل بدون اللغة المعهودة بيد أن لها لغة خاصة ومادامت الأنساق والوقائع كلها دالة فلا بأس من تطبيق المقاييس اللسانية لبناء الطرح الدلالي،وقد انتقد" بارث" في كتابه "عناصر السيميولوجيا" الأطروحة السوسيرية التي تدعو إلى إدماج اللسانيات في السيميولوجيا مبيّنا بانّ اللسانيات ليست فرعا ولو كان مميّزا من علم العلامات بل السيميولوجيا هي التي تشكّل فرعا من اللسانيات.[1]

بالتالي تجاوز" رولان بارث" تصور الوظيفيين الذين ربطوا بين العلامات والقصدية وأكد وجود أنساقا غير لسانية حيث التواصل غير إرادي ولكنّ البعد الدلالي موجود بدرجة كبيرة، وتعتبر اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل هذه الأنساق والأشياء غير اللسانية دالة، حيث أنّ كل المجالات المعرفية ذات العمق السوسيولوجي الحقيقي تفرض علينا مواجهة اللغة ذلك أنّ الأشياء تحمل دلالات، غير أنّه ما كان لها أن تكون أنساقا سيميولوجية أو أنساقا دالّة لولا تدخل اللغة ولولا امتزاجها باللغة، فهي إذا تكتسب صفة النسق السيميولوجي من اللغة، وهذا دفع "بارث" إلى أن يرى أنه من الصعب جدّا تصوّر إمكان وجود مدلولات نسق صور أو أشياء خارج اللغة فلا وجود لمعنى إلاّ لما هو مسمّى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة.

أمّا عناصر سيميولوجيا الدلالة لدى "بارث" فقد حدّدها في كتابه"عناصر السيميولوجا"، وهي مستقاة على شكل ثنائيات من اللسانيات البنيوية وهي: اللغة، الكلام، الدال والمدلول، المركب والنظام، التقرير والإيحاء(الدلالة الذاتية والإيحائية)، وهكذا حاول الاستعانة باللسانيات لمقاربة الظواهر السيميولوجية كأنظمة الموضة والأساطير والإشهار...الخ.

---

[1] حنونمبارك:**مرجع سبق ذكره**،ص76.

وعلى حسب "بارث" فالقراءة التضمّنية ترجع إلى الدلالة الحقيقية للدّليل، بمعنى أنها تحيل إلى كون الصورة الصحفية توحي بما هو أبعد ممّا تمثّله كونها تتعلّق بالجانب الإنساني المتصل بالتأثير الذي يولّده الدليل حين التقائه مع مشاعر وأحاسيس المتلقي[2]، ويعني هذا أنّ" بارث" عندما يدرس عناصر الصورة فإنه يركزعلى الثنائيات التي استقاها من الألسنية البنيوية وهي:

أ ـ اللغة والكلام: ميز دي سوسير بين اللغة والكلام، إن فعل الكلام لا يمكن أن يكون دراسة علمية لأنه كلام عابر، ليس له نظير في العادة، أما اللغة فهي ثابتة لها بنية قارة عكس الكلام الذي يتكون من عدد لامنتهاة من الإمكانات الملفوظة"[3]، فاللغة بمثابة العقد الاجتماعي الملزم لكل من يريد التواصل أما الكلام فعل فردي دائم الحركة حسب المتكلم.

وتجسيما لهذا التمييز بين اللغة والكلام، يقرأ رولان بارث الغذاء بما هو نسق دلالي، فيرى لغة الغذاء قائمة على قواعد المنع (المحرمات الغذائية)، وعلى وحدات من التعارضات الدالة (حلو/ مالح، بارد/ ساخن..الخ)، وعلى طقوس الاستعمال التي قد يمثل ضربا من البلاغة الغذائية أما الكلام الغذائي فيه كل التلوينات الفردية أو الأسرية أثناء عملية الطبخ والتصنيف، وليس التمييز بين اللغة والكلامفي رأي بارث مسلم غير قابلة للنقاش، إذ يجري تعديلا عليها لما يجيز قابلية تطبيقها على أنساق دلالية أخرى فاللباس مثلا يسمح بالتمييز بين ثلاثة أنساق مختلفة، يغيب الكلام في اللباس المكتوب كما تصفه لغة مجلات الموضة.

إن محض لغة لا كلام فيه تصدر عن صناع الموضة دون الكتلة المتكلمة، وفي اللباس المصور تنحدر اللغة دائما من صناع الموضة، ولكنه محمول من قبل عارضة الأزياء التي تعرض كلاما جامدا، أما اللباس الواقعي فيتوافق معها التمييز السوسيري بين اللغة والكلام، تكمن اللغة في قواعد اللباسبما فيها من تعارضات وثنائيات (طويل،قصير،أبيض، أسود...)، أما الكلام فيتوافق مع الاستعمالات الفردية للباس بما في ذلك من اختلاف الأمزجة والأذواق والإمكانات"[4].

لكن رولان بارث في مؤلفه" نسق الموضة" يحور جزئيا ثنائية اللغة والكلام، ففي اللباس مثلا تظهر ثلاثة أنساق مختلفة من لباس مكتوب، لباس مصور،لباس ملبوس واقعي، واللباس المكتوب مثلا كما تصفه مجالات الموضة هو محض لغة يغيب فيها الكلام، إذ هونسق من العلامات والقواعد تقررهمجموعة من الناس دون الاستناد إلى الكتلة المتكلمة، واللغة دون الكلام تعد استحالة عند سوسير"[5] .

---

[2]- Judith Laser :**La science de la communication**, Edition dahlab ; Alger ; 1992; p .45.

[3]- محسن بوعزيزي: **مرجع سبق ذكره**، ص 61.

[4]- محسن بوعزيزي: **مرجع سبق ذكره**، ص 61.

[5]- محسن بوعزيزي: **مرجع سبق ذكره**، ص 62.

ب ـ الدال والمدلول: يؤكد دي سوسير أن الدال والمدلول" وجهان لعملة واحدة، إذ يصعب الفصل بينهما إلا إجرائيا والعلاقة بينهما تكون العلامة، يمثل الدال مستواها المادي فهي ضرورية له ولكنها غير كافية، أما المدلول فهو المفهوم الذي يشير إليه هذا الدال، فلا يفصح عن نفسه إلا من خلاله كالخطوط الموجودة على الورقة التي تمثل دوال لمحتوى معين هو المدلولات، لكن الدال أساسي في المقاربة السيميولوجية، إذ تقتضي عملية تصنيف الدوال ضمن علاقات تركيبية إلى بناء نسق العلامات، وهذا في حد ذاته مفصل مهم من مفاصل الجهد السيميولوجي"[6]، كون دوال اللسان تتخذ في الرسالة طابعا خطيا متزامنا، " فلقد ركز اللغويون قبل سوسير على الزاوية التاريخية، أي تطور اللغة عبر الزمن، أما رأي سوسير فكان أن مثل هذه المقاربة غير مفيدة في إيضاح مسألة كيف تعمل اللغة بالنسبة للناس الذين يستخدمونها، فالذي يمنح العلامات (المفردات) معانيها لجماعة من مستخدمي اللغة، على سبيل المثال، إنما هو نظام الاصطلاح اللغوي وليس معرفة تاريخ تحول العلامات اللغوية لتكون ما هي عليه اليوم، أتاح التركيز على التحليل السيكروني لسوسير أن يظهر كيف تعمل العلامات كجزء من تركيب لغوي في مكان ما وفي لحظة ما، فعلى سبيل المثال فثياب الجينز كانت يوما ما ثيابا للعمل وعلامة للانتساب؟إلى الطبقة العاملة، أما اليوم فالجينز هو علامة تعني "الشباب" " وغير الرسمي" علامات تنتمي إلى الثياب اليومية في مقابل " البزات" التي تشير إلى ما هو رسمي وتنتمي بالتالي إلى شفرة زي مغاير، وعليه فالمعنى المشفر للجينز يعتمد إلى حد كبير على علاقته واختلافه،عن العلامات المشفرة الأخرى في نظام الأزياء الحالي وليس على تاريخ الجينز نفسه، لذلك تبدو المقاربة السكرونية أكثر قدرة من المقاربة الدياكرونية على كشف المعنى الراهن للجينز"[7].

جـ ـ المركب والنسق والجدول: تقوم العلامة اللسانية عند دي سوسير على المركب والنسق، تنشأ العلاقة التركيبية من تسلسل الكلمات والعناصر المتفرقة فيها تسلسلا منطقيا، فلا معنى يمكن بلوغه دون التمفصل المزدوج بين أجزاء الكلمات، ودون وحدات تركيبية بما هي وحدات دلالية تتابع وتتقاطع بصورة منظمة، فتمنح المعنى، وهو ما يميز العلاقة التركيبية عن العلاقة الجدولية أو الجريدية (paradigme)، إذ الأولى تعتمد القواعد أكثر من الثانية وينظر للمستوى التركيبي باعتباره المحور الأفقي للغة أو الظاهرة، أما المستوى الجدولي فيمثل المحور العمودي، يشير الأول إلى العلامات التي يمكن أن تأتي تباعا أو تلك التي لا يمكن أن تأتي تباعا في سلسلة العلاقات السياقية، أما النسق كما يراه دي سوسير سلسلة من الحقول المترابطة وهو

---

[6]- محسن بوعزيزي: **نفس المرجع**، ص ص65/64.

[7]- جوناثان بيغنل: **مدخل إلى سيمياء الإعلام**، ترجمة محمد شيا، مجد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2011، ص 21.

أساس كل عمل سيميولوجي، يراه بارث محور الترابطات بين وحدة حاضرة في المركب ووحدات غائبة، ويقدم أمثلة على ذلك يجدها مثلا في الثقافة المطبخية، فمختلف تنويعات التحلية التي تقدم فور انتهاء الطعام يمكن أن تكون نسقا أو براديغما، أما قائمات وجبة الطعام، فيمكن أن تكون علاقة تركيبية، وتمثل مختلف أنواع الأسرة نسقا، أما الجمع بين السرير والخزانة والطاولة فتكون مركبا هكذا كانت أعمال رولان بارث سيميولوجيا مطبقة على موضوعات ثقافية مختلفة من قبيل النسق الغذائي ونسق اللباس ونسق المدينة والحكاية والإشهار كنسق بلاغي[8].

د ـ الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية: يمكن اعتبار الدلالة الذاتية والإيحاء في اللغة نسقين من الدلالة يشابك الواحد بالأخر، وفي الوقت نفسه يمكن الفصل بينهما، فالدلالة الذاتية نسق دلالي أول يتكون من دال ومدلول، والعلاقة بينهما تكون العلامة اللسانية، أما الإيحاء فهو امتداد للنسق الأول، تصبح فيه العلامة مجرد دال لمدلول ثان، ويمكن أن يمتد التحليل لتصبح علامة النسق الأول، وبشكل معكوس مدلولا لدال جديد، ويظهر الإيحاء أو ظلال المعنى، لما يستهدف القارئ تفسير سنن النص أو الظاهرة إن مرتبة ثانية من الدلالة، ترد العلامة بدالها ومدلولها، دالا لها فتمنح مدلولا إضافيا، أما الدلالة الذاتية فتشير إلى المعنى الحرفي المباشر الذي هو قائم في النظام الأول من الدلالة، مما يجعله في متناول الحس المشترك"[9].

ولعل المثال الذي قدمه بارث في "بلاغة الصورة " يشرح ذلك، فبانزاني Panzaniمثلا تحيل في دلالتها الذاتية إلى نوع من العجين يحمل اسم الشركة التي أنتجته، أما في مستوى الإيحاء فيشير إلى البعد الوطني الإيطالي، بحيث تظهر في جرسية الكلمة، إشارة لا صلة لها بمرجع الملفوظ، أنها وضعية اللغة الخارقة(الميتالسانية) بما هي سيميولوجيا تقوم على سيميولوجيا أخرى، هذه اللغة الخارقة هي لغة اللغة، تتحدث فيها الثانية عن الأولى، والأسطورة عند بارث تجسيم لهذا الضرب من اللغة، فهي عنده لسان ثاني نتكلم فيه على اللسان الأول[10].

---

[8]- محسن بوعزيزي: **مرجع سبق ذكره**، ص ص 70/69.
[9]- محسن بوعزيزي: **مرجع سبق ذكره**، ص ص 72/71.
[10]- محسن بوعزيزي: **نفس المرجع**، ص 72.